✸ سورة الطارق:

1) اسم السورة:

لم يُختلف في كون اسمها سورة الطارق.

وفي بعض الكتب يقال "والسماء واطارق" وهذا ليس اسمًا مغايرًا، وهو مأخوذ من اللفظ في الآية الأولى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾

2) أين نزلت؟:

لم يختلف العلماء في أنها نزلت في مكة، فهي مكيَّة بالإجماع

عدد آياتها:

اختُلِفَ في عدِّ الآي في هذه السورة.

القول الأول: عدد آياتها ست عشرة آية، وذلك بأن يكون قوله تعالى﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ آية واحدة.

القول الثاني: عدد آياتها سبع عشرة آية ،وذلك بأن يكون قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ آية، و﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ آية أخرى.

تنبيه

إذا جاءنا الخلاف في عدِّ الآي فليس معنى ذلك أن هناك عالم أو إمام أو جماعة من علماء المسلمين يزيدون آية والآخرون ينفونها؛ بل كل العلماء متفقون على أنه لا زيادة في ألفاظ وحروف القرآن، ولكن يختلفون في تقسيم بعض الآيات، فبعضهم يقسمها إلى آيتين فتزيد الآيات عندهم، وبعضهم يجعلها آية واحدة فتنقص أعداد الآيات عندهم.

3) موضوعها :

هذه السورة مبينة لعناية الله –عز وجل– بالإنسان، وبيان آيات قدرته التي ترهِّبُ من جنابه.

4) مناسبة هذه السورة لما قبلها:

- في سورة البروج جاءت قصة أصحاب الأخدود الذين كادوا المؤمنين وآذوهم أذًى شديدًا حتى إنهم خدُّوا لهم في الأرض أخاديد وأحرقوهم فيها.

فالله –عز وجل– يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

ثم يعد المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

ثم يقول مهددًا هؤلاء الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾

- وفي سورة الطارق يقول مهددًا:﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾.

5) مناسبة أول هذه السورة بآخر سورة البروج:

في سورة البروج قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، يبين أن هذا القرآن في لوح محفوظ، وأن كلَّ شيءٍ مُحصَى ومُدقَّق، ولا يفوت على الله من أمر العباد، وأمر الخلق، وأمر الكون كله شيء.

وفي هذه السورة يبيِّن شيئًا من هذا الحفظ، فيقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، فهذا الكون العظيم ، الذي لا يمكن لأحد أن يقوم به إلا الله –سبحانه وتعالى– قد حفظه وضبطه وأتقنه، وتمكَّن منه ومكَّن ملائكته من القيام بأدوارهم، وكل ذلك بأمره.

✸ تفسير الآيات:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾:

أقسم الله هنا بالسماء وكذلك أقسم بالطارق

السماء: هي هذا الجرم الذي نراه ، وهي آية عظيمة من آيات الله –عز وجل.

وقد تأتي السماء في اللغة ويُراد بها كلُّ ما علاكَ وأظلكَ وما هو فوقك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، يعني فليمدد بحبل إلى السقف.

ولذلك يُقال للسحاب سماء، ولكنها هنا المراد بها هذا الجرم الذي نراه بأبصارنا، وإن كنَّا نراه على حالٍ ليست هي الحال التي خلقه الله عليها لأنها بعيدة جدًّا عنَّا، فنحن نرى شيئًا يدلُّ عليها ، وهذه السماء ليست هي أعظم مخلوقات ، لأن أعظم المخلوقات هو العرش، وهو أكبرها، لكن لا شك أن هذه السماء عظيمة جدًّا.

وَالطَّارِقِ: جاء تفسيره في الآية الثالثة وهو ﴿النجم الثاقب﴾ ، وهذا من تفسير القرآن للقرآن، وهوأقوى أنواع التفسير وأصحه وأثبته

فتفسير القرآن بالقرآن هو تفسير صريح وقطعي : وهو أن يأتي في الآيات ما يدل على التفسير صراحة.

مثال1 : قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ مَن هم المطففون؟﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

مثال2 : قوله سبحانه وتعالى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مَن هم أولياء الله؟ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

مثال3 : قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ الجواب: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾.

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ :الإقسام بالطارق له دلالة كما أن الإقسام بالسماء له دلالة.

أما السماء فالذي أقسم بها أراد أن يبيِّن لنا عظمة خلفه الدالة على هيبته –جل وعلا– وأنه يجب علينا أن نخاف منه، وأن نحذره.

أما القسم بالطارق ففيها دلالة على أن هذه النجوم التي تثقب الليل بضوئها يشبهها هذا القرآن الذي يثقب ظلام الكفر والجهل والظلم الذي يعم الأرض فينير للناس الطريق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾:

وهذا على سبيل التفخيم والتشويق.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾:

أي النجم الذي يثقب الظلام بضيائه.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾:

بيَّن في الآية هذه المقسَم عليه فقال : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

إن: تأتي كثيرًا في القرآن بمعنى (ما)، أي "ما كل نفس إلا عليها حافظ"

مثال1 : قوله سبحانه وتعالى﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾، أي "ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم".

مثال2 : قوله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ معناها: "ما عليك إلا البلاغ"

لَّمَّا: تأتي بمعنى "إلا" وهي تقرأ بقراءتين ﴿لَمَّا﴾ و﴿لَمَا﴾

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ: أي ما كلُّ نفسٍ إلا عليها حافظ من الملائكة يحفظها ويكتب أعمالها ويدوِّن كل صغير وكبير عليه.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾:

هذه دعوة للإنسان، فبعد أن انتهى من العوالم العلوية السماء، والطارق النجم الثاقب؛ انتقل إلى ذات الإنسان تذكيرًا له.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ حتى لا يتكبر، وحتى يعلم دقة تدبير الله وتقديره.

﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾:

خُلِقَ: أي الإنسان ، وآثر المبني لغير لمعلوم من أجل التركيز على الحدث، وإلا أصل الكلام: "خلقه الله من ماء دافق"

مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ : ابن آدم مخلوق من الماء، وهذا الماء من صفته أنه دافق، يعني يخرج باندفاع وقوَّة.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾:

هذا الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب.

الصلب: هو أسفل الظهر، أسفل العمود الفِقَري.

الترائب: هي عظام الصدر العلوية ، لأن الناس عبروا عن هذا المكان بقولهم: "ما تحت القلادة من صدر المرأة".

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ* يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ: هذا الماء الدافق يخرج من أسفل الظهر إلى هذه الترائب، يعني هذه منطقة التكوين لهذا الماء.

وليس في هذه الآيات ما يدل صراحة على أن هذا التكوين للماء للرجل وحده أوللرجل والمرأة ، ولكن بالنظر إلى الآيات نجد أن فيها إشارة أن هذا من الرجل، لقوله ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾، والدفق هو من صفة ماء الرجل.

فإن قال قائل: إن المفسرين قالوا: إن الترائب هي موضع القلادة من صدر المرأة.

قلنا: هذا تفسيره في اللغة، ولا يقصدون بذلك أنه موضع الصدر من المرأة، وإنما هو إشارة إلى المكان وهو مكان الصدر من المرأة.

ويُمكن أن يُقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أي صلب الرجل، ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ ترائب المرأة.

قلنا : لو كان هذا المعنى هو المراد لقال الله: "يخرج من الصلب والترائب"، ولكن قال ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، فهذا يؤكد -والله أعلم- أنه يخرج من الرجل من المنطقة التي تكون بين صلبه وترائبه، منطقة الإنتاج لهذا الماء الدافق.

بعض المفسرين من السلف: الترائب: هي أطراف الرَّجل: يداه ورجلاه وعيناه.

- هذه الآيات قد بيَّنت من أين يخرج أو من أين يتولد هذا الماء، والعلم الحديث أصبت هذه الحقيقة، وهي أن الماء يُنتج في هذه المواطن.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾:

إِنَّهُ: أي الله.

عَلَى رَجْعِهِ: اختُلف فيها على قولين .

القول الأول: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ على رجع الماء.

واختُلف كذلك في هذا القول:

- قيل:﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ : إنه على رجع الماء إلى الصلب، يعني إن الله لقادر على أن يرد الماء إلى الصلب.
- وقيل: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ أي رجع الماء إلى الإحليل الذي هو الذَّكر.
- وقيل: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾، رجعه: بمعنى ردِّه، أي ردِّ الماء فلا يخرج. وهذا معنًى غريب لكلمة الرجع.

القول الثاني: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾، رجع الإنسان بعد الموت ﴿لَقَادِرٌ﴾.

وهذا القول يدل عليه أمور:

❖ الأمر الأول: قول الله -عز وجل: ﴿فَمَا لَهُ﴾ ، فالضمير يعود إلى الإنسان؛ إذن الضمير الذي يسبقه يعود إلى نفس المرجع، فيكون: "إنه على رجع الإنسان لقادر، فما للإنسان من قوة ولا ناصر".

❖ الأمر الثاني: أن الآية جاءت لتستدل على أمر جاء القرآن به كثيرًا، وهو من قضايا الخصومة بين النبي ﷺ والمشركين ، إذا قلنا: "إنه على رجع الإنسان لقادر" لأن القضية التي اختصم فيها النبي مع المشركين هي قضية هل فيه يوم آخر أم ليس فيه يوم آخر.

أما هل الله سبحانه وتعالى يقدر على أن يرد الماء أو لا يرده، لم يختصم فيها النبي ﷺ مع المشركين، فبانَ لنا بذلك أن القضية التي جاءت الآيات لتقريرها هي القضية التي وقعت فيها الخصومة بين النبي ﷺ وبين المشركين وهي قضية البعث.

نقول: من عادة القرآن الاستدلال على البعث والاعتناء بأمر البعث، ومتى جاءت الآية مختلفًا فيها بين أن يكون جاريا على العادة أو مخالفًا لها، قلنا: لا، لَأَنْ يجري على العادة القرآنية أولى.

❖ الأمر الثالث: أنه مما يؤكد ذلك هو: السياق، وهو عندنا من أهم الأدلة التي نستدل بها على ترجيح قولٍ على قول، وعلى فهم الآية وفهم المعنى.

فالسياق في الآيات يدلُّ على أن المراد هو اليومَ الآخر وهو في قوله سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

فقول الله سبحانه وتعالى﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾، إذا نظرت للتي بعدها عرفت أن الحديث عن اليوم الآخر، قوله ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، فكيف يقول: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ أي رجع الماء لقادر يوم تبلى السرائر؟! فهذا بعيد جدًّا.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾:

أي تُكشَف وتُختبَر ويُنظَر إليها، ويُميَّز بين ما هو في صالح الإنسان وما هو ضده، ما هو خير وما هو شر، ما هو إيمانٌ وما هو كفر.

﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾:

أي في ذلك اليوم ليس له من قوة يدفع بها عذاب الله -عز وجل- ولا ناصرٌ من غيره يدفع عنه ما حلَّ به من البلاء، وهذا في غاية التهديد لبني الإنسان.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾:

في هاتين الآيتين قسمٌ جديدٌ : بالسماء ، وكذلك بالأرض

ذَاتِ الرَّجْعِ: ذات المطر، فالمطر سُمِّيَ رجعًا لأنه يرجع مرةً بعد أخرى، فلا ينزل مرَّة واحدة وانتهى.

ذَاتِ الصَّدْعِ: أي ذات التشقق، إذا نزل عليها المطر تشققت بالنبات.

✸ ماهي مناسبة هذا القسم؟

هذا قسمٌ على القرآن، وهو مناسب للقسم بالسماء والأرض.

فالقرآن ينزل من السماء كنزول المطر من السماء، وينزل على القلوب التي في أجواف العباد، فمن القلوب ما ينتفع بهذا القرآن ويتشقق بالمنفعة، فيتذكر ويتعظ ويخشى ، ومن القلوب ما هو صلدٌ لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر منكرًا، ولا يأبه بشيء، كما قال الله -عز وجل: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، يعني فقلوب هؤلاء العباد قاسية كالحجارة أو أشد قسوة.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾:

إِنَّهُ: هذا ضمير، وليس قبله مفسِّر له يدلُّ عليه، ومع ذلك لم يختلف الناس في أن المراد به القرآن ، وهذه عادة قرآنية، وهي أن الضمير إذا لم يوجد له مفسر، فإنه غالبًا يعود إلى القرآن

لَقَوْلٌ فَصْلٌ: قولٌ يفصل بين الحق والباطل، يفصل بين الكفر والإيمان، يفصل بين الصدق والكذب، يفصل بين الشك واليقين.

فالقرآن من أوله إلى آخره جاء للفصل، لبيان الحق، حتى فيما اختلف فيه بنو إسرائيل من كتابهم وأخبارهم جاء القرآن ليفصل بينهم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، فهو كتاب فاصل، فاصل يعني أنه جاء بالحق الذي لا ريب فيه.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾:

أيضًا ليس فيه شيء جيء به للترفيه والحكايات والأحاجي والألغاز والتسلية، كل ما فيه ليس هزلًا ولا شكا ولا مرية ؛ بل جدٌّ كما قال الله -عز وجل- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ .

ثم هدَّد هؤلاء المكذبين الذين يقولون أن محمدًا جاء بقرآن هو أساطير الأولين، وبدؤوا يصفون النبيَّ ﷺ بأنه ساحر، وبأنه كاهن، وبأنه شاعر، وبدؤوا يشككون في الحقائق التي جاء بها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ ما ندري يكون بعث أو لا يكون ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾:

إِنَّهُمْ: أي هؤلاء الكفَّار

يَكِيدُونَ كَيْدًا:أي كيدًا عظيمًا، لكن الله يردُّ على كيهم بكيده، فيقول:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾:

نكَّر الله عزوجل الكيد ليعظِّمه، وكيد الله خيرٌ من كيدهم.

✸ هل نثبت صفة الكيد لله؟

نقول: صفة الكيد تكون مرادًا بها المدح، ومرادًا بها الذم.

فيراد بها المدح عندما يكون في مقابلة كيدٍ، يكون ممدوح مَن يكيد بمَن يكيد ، أما إن كانت صفة إثبات مطلق في كل وقت؛ فهذه ليست مدحًا.

ولذلك ما جاءت في القرآن إلا على وجه المقابلة، فالاستهزاء، والخداع، والمكر، والكيد، هذه الصفات جاءت في القرآن على وجه المقابلة.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ﴾، ﴿إِنَّمَا نَحْن مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾:

لا تستعجل عليهم يا محمد فإن الله -سبحانه وتعالى- ما يُقدر وما يجعل هؤلاء يفعلون ما يفعلون إلا لأمر يريده، فعليك بالصبر والتريث وعدم الاستعجال، لا تستعجل لهم، مهِّلهم، فسيأتي أمر الله -عز وجل- فيهم، أمر الله القدري بأن ينزل فيهم عقوبته وبأسه، وأمر الله الشرعي عندما يأذن لك بقتالهم، فتستأصلهم ولا تبقي منهم.

وقد أمهلهم رسول الله ﷺ استجابةً لأمر الله، حتى إذا أذن الله له بالهجرة قال الله له ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، وقال ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾.